حضارة القيروان بتونس :
التّقاطع الحميد مع الآخر

د/ العروسي الميزوري

مدير المعهد العالي لأصول الدّين بتونس،

جامعة الزّيتونة.

استطاعت القيروان منذ إحداثها أن تضطلع بدور رياديّ في بناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة في إفريقيّة وأن تكون منارة انفتاح بين الشّرق والغرب عبر المسار التّاريخيّ. ومن هذا المنطلق، آثرنا أن نتناول بالبحث موضوع : " حضارة القيروان بتونس : التّقاطع الحميد مع الآخر ".

ويندرج البحث في هذا الموضوع في إطار إبراز مدى إسهام مدينة القيروان في ضمان المواءمة بين الخصوصيّة الثّقافيّة الإسلاميّة والثّقافة الكونيّة من جهة ومدى دعمها مسيرة ثقافة التّعايش والتّسامح والتّآلف والوئام بين الحضارات والأديان والثّقافات عبر التّاريخ من جهة أخرى.

وقد اقتضت منهجيتنا أن يقع تناول هذا الموضوع وفق العناصر التّالية :

- في تاريخ مدينة القيروان،
- في مفهوم مصطلح " الآخر"،
- التّقاطع الحميد من خلال ثنائية الأنا والآخر الإسلاميّ في القيروان،
- التّقاطع الحميد من خلال ثنائية الأنا والآخر من الملل والنّحل في القيروان،
- طبيعة العلاقة بين ثنائيّة الأنا والآخر الإسلامي والآخر من الملل والنّحل،
- القيروان بين الخصوصيّة والكونيّة الاجتماعيّة والثّقافيّة.

1 - في تاريخ مدينة القيروان :

كلمة القيروان كلمة معرّبة من الفارسيّة تفيد " مكان السّلاح " و" محطّ الجيش "

و"استراحة القافلة " أو "مكان اجتماع النّاس في الحرب" [1]. وقد أنشأها عقبة ابن نافع سنة 50هـ/670م لهذا الغرض. وتفيد بعض المصادر أنّ مختلف الحملات والغزوات الّتي سبقت بناء القيروان كانت تمرّ بهذا الموقع. فمعاوية ابن حديج كان قد عسكر، خلال إحدى حملاته الثّلاث في إفريقيّة، بموضع معروف بالقرن على بعد 10 كيلومترات شمال غربيّ القيروان [2]. وتذكر كتب الطّبقات، في هذا السّياق نفسه، أنّ الصّحابيّ أبا زمعة البلوي قد مات خلال غزوة معاوية ابن حديج سنة 34هـ / 656م فدفن بموضع القيروان[3].

1) htt : //www.6moo.com/vb/showthread.php ?t : 44345,p2
2) زيتون محمد : القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، دار المنار، القاهرة، 1988، ص71.
3) زيتون محمد : المرجع نفسه، ص71.

وقد عزا جلّ الباحثين أسباب اختيار المكان الّذي تمّ فيه بناء القيروان إلى البعد عن السّاحل حتّى لا تتعرّض لأساطيل البيزنطيّين والقرب من البادية لتباشر هذه المدينة نشر الإسلام بين البربر وتأمين إمدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات المتمثّلة في الإبل[4].

وتعتبر القيروان المدينة الإسلاميّة الأولى في منطقة المغرب. ويعدّ إنشاؤها بداية تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة في المغرب العربيّ نتيجة خروج الجيوش منها للفتح وخروج الفقهاء منها كذلك للانتشار في البلدان الإسلاميّة من أجل تعليم اللّغة العربيّة ونشر الدّين الإسلاميّ.

وقد وُفّق عقبة ابن نافع في اختياره موقع إنشاء هذه المدينة. فالقيروان تقع على بعد 160 كلم من العاصمة، تونس الحاليّة، وعلى مسافة 60 كلم أي مسيرة يوم من البحر الّذي كان البيزنطيّون يسيطرون على عبابه، كما تبعد بمثل هذه المسافة عن الجبال الّتي كانت آنذاك تعتصم بها القبائل البربريّة المناوئة للعرب. وتمثّل القيروان رأس الحربة وسط خطّ المواجهة المتّخذ بين المسلمين والبيزنطيّين بعد انهزام ملكهم جرجير في سبيطلة أمام جيوش معاوية ابن حديج سنة 45 هـ/ 665م وتراجع سلطانهم في شمال البلاد. وقد اختطّت القيروان، فضلا عن ذلك، على منبسط من الأرض يسمح باستنفار الفرسان دون صعوبة باعتبار أنّ الخيول كانت قوام جيش المسلمين في مختلف المعارك الّتي كانوا يخوضونها. وقد راعى عقبة ابن نافع قرب موقع القيروان من السبخة حتّى يوفّر للإبل ما تحتاجه من المراعي[5].

وبعد انتهاء الفتح الإسلاميّ، تعاقب على إفريقيّة ولاّة امتدّ حكمهم من ولاية موسى ابن نصير (84هـ/800م – 95هـ/713م) حتّى قيام الدّولة

4) زيتون محمد : القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، دار المنار، القاهرة، 1988، ص 75.

5) http : //travel.maktoob.com/vb/travel178623,p4.

الأغلبيّة سنة 184هــ/ 800م. وقد أطلق على هذه الفترة عهد الولاّة. ولئن ظلّت إفريقيّة وبالتّالي القيروان مسرح ثورات خلال هذا العهد، فإنّ ذلك لم يمنع بعض الولاّة من القيام بأعمال جليلة ساهمت في بناء الحضارة بالقيروان ونشر الدّين والثّقافة العربيّة الإسلاميّة. وفي هذا الإطار، يمكن أن نذكر يزيد ابن حاتم (155هــ/ 771 م – 171هــ/ 787 م) الّذي تعتبر ولايته من أحسن فترات عهد الولاّة وأكثرها خيرا ورخاء إذ نظّم أسواق القيروان وجدّد بناء جامعها سنة 157هــ/ 773م. ومن جهته، قام هرثمة ابن أعين (179هــ/795م – 181هــ / 797م) بإصلاح مسجد القيروان.

وقد امتدّ نفوذ القيروان، في العهد الأغلبي، بصفتها "العاصمة" السّياسيّة إلى برقة وطرابلس وقسنطينة والجزائر وصقليّة كما أصبحت هذه المدينة أولى المراكز العلميّة في بلدان المغرب تليها قرطبة في الأندلس ثمّ فاس في المغرب الأقصى. وعدّت مقصد البلدان المجاورة وأضحت مساجدها عامّة ومسجد عقبة ابن نافع خاصّة أمكنة تعقد فيها حلقات التّدريس.

وبسقوط الدّولة الأغلبيّة 296هــ/ 908م، تولّى الفاطميّون الحكم فهجروا القيروان إلى المهديّة الّتي جعلوها عاصمة لهم. لكنّ الخليفة المنصور، عاد إلى القيروان في القرن العاشر واتّخذها عاصمة.

وبعد تخريب القيروان من قبل قبائل بني هلال وسقوطها عاصمة سياسيّة سنة 449هــ/1057م، بدأت تونس تحظى بمكانة متميّزة [6]. لكن بالرّغم من ذلك، ظلّ إشعاع القيروان بالأخصّ من الوجهتين الرّوحيّة والحضاريّة قائما عبر العصور. وما اتّخاذ القيروان عاصمة للثّقافة الإسلاميّة لسنة 2009 من قبل المنظّمات الدّوليّة إلاّ أكبر دليل على ذلك.

6) Kairouan : in Robert, Dictionnaire illustré des noms propres, Paris, 1996,p1103.

2 – في مفهوم مصطلح " الآخر " :

المفهوم السّائد لمصطلح "الآخر" هو الغير أي المختلف جذريّا والمتباين مع الذّات. وقد يؤدّي هذا التصوّر الضيّق إلى رفض الآخر وعدم التّعامل معه. وهذا يتعارض بطبيعة الحال مع تعاليم الدّين الإسلاميّ الّذي يقول في محكم تنزيله : ﴿ **يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** ﴾ (7).

ونقصد بالأخريّة أو الغيريّة في هذه المحاضرة الاختلاف والتنوّع الضّروريين لإرساء معادلة حضاريّة وتحقيق مشروع حضاريّ كونيّ جدير بالاعتبار في ظلّ التّحدّيات الثّقافيّة عبر المسار التّاريخيّ.

ويمثّل الاختلاف والتنوّع، وفق توجّهنا، سمة إيجابيّة في التّاريخ البشريّ بقطع النّظر عن طبيعتهما. كما أنّ التّعامل الحضاريّ معهما وفق مبادئ التّسامح والوسطيّة والاعتدال يعتبر علامة متانة البناء الحضاريّ. ويمكن، في إطار دراستنا المتعلّقة بمدينة القيروان، أن نميّز بين مظهرين من مظاهر الآخر : الآخر المتماهي ثقافيّا وتاريخيّا وحضاريّا أي الآخر الإسلامي والآخر المغاير ثقافيّا وتاريخيّا وحضاريّا أي الآخر من شتّى الملل والنّحل.

3 – التّقاطع الحميد من خلال ثنائية الأنا والآخر الإسلاميّ في القيروان :

ويتجلّى ذلك بالخصوص في عدّة مجالات أبرزها :

أ – العلاقات الفكريّة بين القيروان وغيرها من مراكز الفكر في البلدان الإسلاميّة : ويمكن، في هذا الإطار ذاته، أن نشير إلى أنّ الآخر الإسلاميّ

---

7) الحجرات : 13.

متعدّد الجهات وهو يستوجب الحديث عن علاقات متعدّدة الاتّجاهات : صوب المشرق وصوب المغرب وصوب الأندلس وصقلّيّة.

- العلاقات الفكريّة بين القيروان ومكّة والمدينة :

لقد كانت للقيروان صلة وطيدة مع مكّة والمدينة إذ يعتبران المنبعين الأصليين للدّين الإسلاميّ وشريعته واللّغة العربيّة وعلومها. وقد ذكر مؤرّخو الطّبقات أنّ تسعة وعشرين أو ثلاثين صحابيّا من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دخلوا إفريقيّة خلال فترة الفتح منهم من شهد العقبة، ومنهم من شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، ومنهم من شهد بيعة الرّضوان وصلّى إلى القبلتين. وتشير هذه المصادر في هذا السّياق نفسه، إلى أنّ بعض هؤلاء الصّحابة قد مكثوا في إفريقيّة وعاد بعضهم بعد انتهاء الغزوة الّتي جاؤوا من أجلها. وممّا يذكر أنّ عقبة ابن نافع كان معه عندما عاد للمرّة الثّانية خمسة وعشرون صحابيّا وأنّه جمع وجهاء أصحابه وكبار العسكر ودار معهم حول القيروان وهو يقول : " اللّهمّ املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزّا لدينك... "[8].

ولمّا تولّى عمر ابن عبد العزيز الخلافة، اختار عشرة من فقهاء التّابعين وكلّفهم بنشر التّعاليم الدّينيّة وتثقيف المسلمين في إفريقيّة، فقدمت بعثة الفقهاء واستقرّت في مدينة القيروان. وقد شملت هذه البعثة إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر المخزومي المتوفّى بالقيروان سنة 132هـ/ 749م وإسماعيل بن عبد الله الأنصاري المتوفّى سنة 107هـ/ 725م وعبد الله بن يزيد المعا فري وأبو مسعود سعيد بن سعد التجيبي الكندي وعبد الرّحمان بن رافع التنوخي وموهب بن حيّ المعا فري وحيّان بن أبي جبلة القرشي وطلق بن جابان

8) أبو العرب : طبقات إفريقيّة، ص 56- المالكي : رياض النّفوس، ص 6.

الفارسي وبكر بن سوادة الجذامي وأبو سعيد جعثل بن هامان بن عمير الرّعيني. وكانت القيروان تتّصل بالمدينة بواسطة إرسال رسائل للاستفتاء فيما يحدث من القضايا وقد ذكر أبو العرب أنّ عبد اللّه بن فرّوخ كان يكاتب مالكا وكان مالك يعرفه ويكاتبه بجواب مسائله [9].

وكان عبد الله بن غانم قاضي القيروان يرجئ أمر الخصمين إذا حدث إشكال حتّى يأتيه جواب مالك ابن أنس [10]. وقد طبّق الإمام سحنون هذا المنهج.

والحاصل لدينا هو أنّ الصّلة العلميّة كانت قائمة بين القيروان ومكّة والمدينة بكلّ الطّرق الممكنة من الوجهتين السياسيّة والثّقافيّة [11].

- العلاقات الفكريّة بين القيروان ومدن العراق : الكوفة والبصرة وبغداد :

لم يكتف رواد العلم بالمنبع الأصليّ الإسلاميّ في مكّة والمدينة فواصلوا طريقهم إلى الكوفة والبصرة وبغداد من أجل الالتقاء بعلمائها وربط علاقات بين القيروان وهذه المدن. وكان من بين هؤلاء عبد الله عبد الله بن فرّوخ ووعبد الله بن غانم وأسد ابن الفرات وغيرهم كثير. كما كان للقيروان اتّصال بمدن العراق عن طريق ديوان البريد والمشورة في بعض الأقضية [12]. كما أرسلت بعثات من القيروان إلى بغداد لشراء نفائس الكتب وقدم بعض التجّار بالكتب من

9) أبو العرب : الطّبقات، ص 105.

10) الرقيق : تاريخ إفريقيّة، ص 170.

11) زيتون محمد : القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، دار المنار، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1988، ص 419-423.

12) المرجع نفسه، ص ص 424-425.

بغداد لبيعها في القيروان. وقد وصلت كتب محمّد ابن سحنون المؤلّفة في القيروان إلى بغدا [13].

- **العلاقات الفكريّة بين القيروان ودمشق :**

لقد اتّصلت القيروان بدمشق فكريّا. ولئن كانت هذه الصّلات قليلة، فإنّ علماء القيروان وطلاّبها قد اتّصلوا بالفكر الشّرعيّ والفكر الأدبيّ والفكر اللّغوي بدمشق[14].

- **العلاقات الفكريّة بين القيروان والقاهرة :**

ولئن عدّت مصر مسلك عبور بالنّسبة إلى المشرق أومن المشرق إلى القيروان، فإنّ بعض المؤرّخين قد ذكروا أنّ أعلاما من القيروان قد تلقّوا العلم في مصر أبرزهم أسد ابن الفرات الّذي ألّف أسديته في مصر وسحنون الّذي ألّف مدوّنته كذلك في مصر. وقد كان اتّصال القيروان بمصر يسيرا بحكم القرب فضلا عن يسر التّنقّل إلى مصر بطريقي البرّ والبحر [15].

- **القيروان و مدن المغرب الأوسط والمغرب الأقصى :**

لقد عدّت القيروان بالنّسبة إلى المغرب الأوسط (الجزائر حاليّا) والمغرب الأقصى (المملكة المغربيّة حاليّا) المنارة العلميّة الأولى الّتى امتدّ إشعاعها إلى هذه البقاع. من أجل ذلك، قصدها أبناء المغرب الأوسط والمغرب الأقصى فتلقّوا فيها العلوم المختلفة وقد يكونوا رحلوا منها بعد ذلك إلى الشّرق ورجعوا إليها للاستقرار بها والإسهام في نشر العلم. ولنا في ذلك نماذج : فمن أبناء

13) المرجع نفسه، ص 424-427.
14) المرجع نفسه، ص 418.
15) المرجع نفسه، ص 429-431.

تاهرت نجد بكر ابن حماد ومن فاس، دارس ابن إسماعيل ومن أهل سجلماسة، عيسى بن سعادة السجلماسي ومن أهل السّوس الأقصى، محمّد بن أحمد السّوسي والبهلول أبن راشد (16).

- **العلاقات الفكريّة بين القيروان ومدن الأندلس :**

عدّت القيروان بالنّسبة إلى طلبة الأندلس المركز الفكريّ الرّئيسيّ والمدينة الإسلاميّة الّتي أقامها المسلمون لتكون الموطن الأصليّ للحياة الفكريّة في الشّمال الإفريقيّ. فلمّا عبر المسلمون إلى الأندلس، عبر معهم فكر القيروان وأشعّ في مختلف أرجاء الأندلس. لذلك، كانت رحلة طلبة العلم من مختلف جهات الأندلس تجاه القيروان. وقد ترجم لنا في هذا السّياق نفسه، ابن الفرضي في مؤلّفه " تاريخ علماء الأندلس" لأكثر من مائة عالم رحلوا من مدن الأندلس إلى القيروان لتلقّي العلم على علمائها وبالأخصّ على الإمام سحنون وتلاميذه ممّن كانوا يتمسّكون بالمذهب المالكيّ. وقد أورد لنا الخشني في كتابه "قضاة قرطبة" من تلقّى العلم في القيروان من بينهم عامر بن معاوية اللّخمي وأسلم بن عبد العزيز ومحمّد بن عبد الله بن عيسى. كما أشار كتاب "عياض المدارك" في جزئه الثّالث وكتاب "الصّلة" لابن بشكوال في جزئه الأوّل وغيرها من المؤلّفات إلى رحيل عدد من طلبة الأندلس إلى القيروان لتلقّي العلم فيها والاستفادة من علمائها.

وكان حجّاج الأندلس يغتنمون فرصة مرورهم بالقيروان للإقامة في هذه المدينة والأخذ عن علمائها. وكان قضاة القيروان يرون أنّهم مقدّمون عن قضاة قرطبة ولهم المنزلة الأولى وقد دعمت هذا التمشّي المراسلات الّتي كانت قائمة بين قاضي القيروان وقاضي قرطبة.

16) المرجع نفسه، ص 432.

ومن جهة أخرى، رحل بعض العلماء من القيروان إلى الأندلس واستوطنوا فيها ونشروا فيها علمهم ومعارفهم. ومن بين هؤلاء، يمكن أن نخصّ بالذّكر : حباشة بن حسن اليحصبي وتميم بن محمّد بن أحمد التّميمي ومحمّد بن هشام اليحصبي ومحمّد بن الحارث الحشني ومحمّد بن يوسف الوراق وقد ساعد قيام الدّولة الفاطميّة وبروز ذهنيّة ثقافيّة جديدة، علماء القيروان على رحلة البعض منهم إلى الأندلس [17].

- العلاقات الفكريّة بين القيروان وصقلّيّة :

تولّى أسد ابن الفرات فقيه القيروان وقاضيها فتح صقلّية. وما أن استقرّ بها المسلمون حتّى ذاع صيت القيروان المعرفي في ربوعها. وتبعا لذلك، أقبل أبناء صقلّية وأبناء الفاتحين إلى القيروان لتلقّي مختلف العلوم من علمائها. وتفيدنا بعض المراجع، في هذا الإطار، أنّ كثيرا من القضاة أسندت إليهم الدّولة أمر القضاء في صقلّية فقاموا إلى جانب مهمّتهم القضائيّة بنشر العلوم والمعرفة. ويمكن أن نخصّ بالذّكر من بين هؤلاء كلاّ من محمّد بن سليمان بن سالم القطّان وأبو عمر وميمون بن عمرو.

أمّا من بين من رحل من أهل القيروان إلى صقليّة من أجل نشر العلم، فإنّنا نجد كلاّ من سعيد بن يحي ولقمان بن يوسف الغسّاني وعيسى بن مسكين. وعلاوة عن ذلك، ساهم الإنتاج الفكريّ القيروانيّ من جهته في ربط جسور العلاقات المعرفيّة بين مدينة القيروان وصقلّية إذ تمّ نقل المدوّنة في الفقه المالكيّ والموطإ وملخّصه الّذي القابسي إلى غير ذلك من الكتب المؤلّفة في مختلف فنون العلوم إلى صقلّية [18].

17) زيتون محمد : القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، دار المنار، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1988، ص 433-440.

18) زيتون محمد : المرجع نفسه، ص 441-446.

ب - التّعايش والتّناغم بين المذاهب الإسلاميّة في القيروان :

تفيدنا بعض المصادر والمراجع أنّ الفرق الكلاميّة الإسلاميّة كالأشعريّة والمعتزلة والشّيعة والمرجئة قد سجّلت حضورها بمدينة القيروان في وقت مبكّر من فتح الغرب الإسلاميّ كما وصلت أيضا إلى هذه المدينة المذاهب الإسلاميّة الأربعة وهي المذهب الحنفيّ والمذهب المالكيّ والمذهب الشّافعيّ والمذهب الحنبليّ. يقول القاضي عياض في هذا السّياق : " إنّ إفريقيّة وما وراءها من المغرب كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيّين، يعني مذهب أبي حنيفة، إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبُهلول بن راشد وبعدهم أسد أبن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من النّاس ولم يزل يفشوا إلى أن جاء سحنون فغلب في أيّامه وفضّ حلق المخالفين واستقرّ المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا وكان بالقيروان قوم قلّة في القديم أخذوا بمذهب الشّافعيّ ودخلها شيء من مذهب داوود ولكن الغالب إذذاك مذهب المدينة والكوفة" [19] ويقصد بمذهب الكوفيّين المذهب الحنفيّ وبمذهب المدينة مذهب مالك.

ويذكر ابن حزم الأندلسيّ في مؤلّفه " جمهرة أنساب العرب " محمّد ابن الحسن الفقيه الشّافعيّ بالقيروان [20]. كما يفيدنا القاضي عياض أيضا أنّ أبا عبد الله بن غلبون الصّنهاجي كان فقيها بمذهب مالك... وله ميل إلى المذهب الشّافعيّ " [21].

---

19) القاضي عياض : المدارك، الجزء 1، ص 54.
20) م.ن ص ص 43-44.
21) القاضي عياض : المدارك، ج 3، ص ص 346-347.

ويحدّثنا ابن فرحون أنّ عبد الله بن طالب القاضي ألّف كتابا في الردّ على المخالفين من الكوفيّين والشّافعيّ على المعرفة بالمذهب وأنّ هناك من كان يتمذهب بالمذهب الشّافعيّ في مدينة القيروان (22).

ويذكر القاضي عياض أنّ بعض أصحاب سحنون أعرس (أقام عرسا) فدعا جماعة من أصحابه " وفيهم رجل من أهل المشرق من أصحاب ابن حنبل قدم علينا وكنّا نسمع منه " (23).

هكذا يبدو من خلال الإفادات الآنفة الذّكر أنّ المذاهب الأربعة المشهورة قد وصلت إلى القيروان وإن كان بعضها كان له الغلبة وكثرة الأتباع وبعضها كان لا يعتنقه إلاّ أفراد قليلون. فالآراء الّتي كانت تدور حول التّشريع الإسلاميّ في أرجاء العالم الإسلاميّ قد برزت في القيروان ودرّست فيها (24).

لقد شكّلت مقولة المذاهب الفقهيّة بالقيروان إحدى أبرز المقولات المعرفيّة والتّاريخيّة والثّقافيّة الهامّة الّتي عرفتها هذه المدينة سواء من حيث أهمّيتها الدّينيّة والتّشريعيّة والفقهيّة والحديثيّة أو من حيث مكانتها في تأصيل مبادئ التّعايش والتّوافق والتّحاور والتّناغم أو من حيث رمزيّة ذلك ودلالته على الصّعيدين الدّاخليّ والخارجيّ. إنّ مبدأ التّعايش السّلميّ بين المذاهب الفقهيّة بالقيروان يعدّ مبدأ أصيلا وراسخا وقد برهنت عليه شواهد التّاريخ ومقرّرات المعرفة والمظانّ الفقهيّة المتّصلة ببيان الأحكام ومدركاتها وتراجم الأعلام وسير المحدّثين ومجمل الدّراسات التّاريخيّة والحضاريّة. ولئن شهدت هذه المذاهب نوعا من التّنافس والاختلاف والتّنازع، فإنّ ذلك قد ظلّ بعيدا عن الجوهر والثّوابت. فما حدث، استجاب لطبيعة التطوّر الحياتيّ وتنوّع المدارك

22) ابن فرحون : الدّيباج المذهب، ص 135.

23) القاضي عياض : المدارك، ج2، ص 613.

24) زيتون محمد : القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، ص 243.

والملكات والأفهام وتجدّد القضايا والنّوازل والحوادث، فقد ظلّ دائما اختلافا يتنزّل في دائرته المعرفيّة الحضاريّة الّتي تستند إلى مستلزمات الخلاف المشروع.

4 - التّقاطع الحميد من خلال ثنائية الأنا والآخر من الملل والنّحل في القيروان :

ويكمن هذا النّوع من التّقاطع الحميد في ما يلي :

أ - التّسامح بين أهل القيروان والآخر من الملل والنّحل :

عرفت مدينة القيروان، إلى جانب سكّانها الأصليّين، الحضور اليهودي والحضور المسيحيّ منذ زمن قديم إذ لم يأت القرن الثّاني الهجريّ/ الثّامن ميلادي حتّى أصبحت القيروان تزخر بالسكّان المنتمين إلى أجناس مختلفة من بربر وروم وعرب. وتأكيدا لذلك، روى اليعقوبي في مؤلّفه الّذي يرجع إلى سنة 276 هـ/ 889 م أنّه يوجد بالقيروان " أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وبها أصناف من عجم البلاد "[25]. ويفيدنا حسن حسني عبد الوهّاب أنّ " اليهود أنشأوا في مدينة القيروان حيّا مستقلاّ سمّوه حارة خيبر اتّسع بسرعة خلال سنوات قليلة وازداد عددهم في عهد الدّولة الصّنهاجيّة وذلك لانشغالهم ببعض الصّناعات وامتهانهم للتّجارة في البلاد. وقد تميّزت منهم عدّة عائلات باحتراف مهنة الطبّ[26]. ومن جهة أخرى، أشار حسن حسني عبد الوهّاب إلى أنّ مقبرة النّصارى القديمة بالقيروان كشفت لنا

25) اليعقوبي : التّاريخ، ج2، ص 358.

26) عبد الوهاب حسن حسني : ورقات، ص ص 255-256.

عن أسماء بعض أفراد عائلة حاضنة باديس بأتباعها. ولقد وجد فيها ثلاثة أنصاب لقبور محرّرة باللاّتينيّة [27].

ويمكن، من خلال ما تقدّم بسطه، أن نقرّ أنّ أهل القيروان وأهل الذمّة من يهود ونصارى استطاعوا أن يعيشوا بمدينة القيروان في وئام وتناغم. لقد مارس أهل الذمّة شعائرهم الدّينيّة بمدينة القيروان بكلّ حرّية ولم يُفتِ أيّ فقيه من فقهاء القيروان بهدم كنيسة أو بيعة. وقد أسند أمراء بني الأغلب إلى بعض اليهود الإفريقيّين مناصب في الدّولة [28]. وذكر ابن عذاري أنّ إبراهيم بن أحمد بن محمّد بن الأغلب عرض ديوان الخراج على سوادة النّصراني [29]. وقد بلغ الحدّ ببني زيري إلى ربط علاقات خاصّة مع النّصارى.

وقد سايرت مدينة القيروان هذا التّمشّي فظلّت مهدا للحضارات والأديان والثّقافات عبر المراحل التّاريخيّة وذلك تطبيقا لتعاليم الدّين الإسلاميّ المبنيّة على الودّ والرّحمة والحبّ والإخاء والتّعارف : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (الحجرات : 13).

ب- الانخراط في الإنتاج المعرفيّ :

تفيدنا بعض المصادر والمراجع أنّ الآخر من الملل والنّحل قد أسهم إسهاما فعّالا في الإنتاج المعرفي بمدينة القيروان. يقول حسن حسني عبد الوهّاب في هذا السّياق نفسه : "ولا يغيب عنّا أن نسوق هنا ما كان لجماعة من

27) عبد الوهاب حسن حسني : المرجع نفسه، ص ص 392-393.

28) MARCAIS Georges : La Berbérie musulmane de l'Orient au moyen âge, Paris, 1946 , p.71 اليعقوبي : التّاريخ، ج 2، ص 419.

29) ابن عذاري المراكشي : كتاب البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1948، الجزء 2، ص 122.

أبناء اليهود الإفريقيّين من الاشتغال بالأخذ عن علماء بيت الحكمة القيروانيّ، ثمّ تدريسهم به لفنون الفلسفة والطبّ والفلك والتّقويم، وفي مقدّمة هؤلاء الطّبيب الطّائر الصّيت : إسحاق بن سليمان الإسرائيليّ والطّبيب دونش. ويسمّى أدُنيم بن تميم بالشّفلّجي وموسى بن العزار وغيرهم كثير. وقد قاموا بوضع أمّهات الكتب في الفلسفة والطبّ والفلك وحوّلها بعضهم من العربيّة إلى اللّغة العبريّة وإلى اللّسان اللاّتينيّ " [30]. ويضيف حسن حسني عبد الوهّاب قائلا : " ومن تلاميذ هذا الرّعيل عالم إسرائيليّ يدعى نسيم بن يعقوب القيرواني، فاق أقرانه في علم الهيئة وحركة الكواكب حتّى أنّ الأسئلة كانت ترد عليه من يهود العراق في المشرق ومن الأندلس في المغرب، يستفتونه في توقيت مواسمهم الدّينيّة إذ لم يكن من بينهم من هو أعلم منه بهذا الشّأن " [31]. وقد تمكّن قسطنطين المشهور بالإفريقي (Constantin l'Africain) من حمل الأوروبيّين على الاشتغال بالعلوم العربيّة وترغيبهم في ترجمة مصنّفاتها. وكان قسطنطين قد ولد بقرطاجنّة وأخذ العلم بالقيروان عن البقيّة الباقية من رجال بيت الحكمة ولقّن علوم العربيّة والرّياضيّة وخصوصا الطبّ والفلك، ثمّ انتقل إلى مصر ومنها عاد إلى بلد قرطاجنّة ومنها قصد إيطاليا واستقرّ أخيرا بسالرنو (Salerno) واتّصل هناك بملك النور مند. وكان قسطنطين بعمله هذا قد عدّ من الأوائل الّذين نقلوا العلوم الّتي انفرد بها المسلمون إلى أوروبا.

ج - الانخراط في النّشاط الاقتصاديّ :

يعتبر اليهود من الأقلّيات الّتي سكنت مدينة القيروان منذ العصر الوسيط وأحدثوا بها سوقا خاصّة بهم ومارسوا فنونا وصنائع أسهمت إسهاما فعّالا في

30) عبد الوهّاب حسن حسني : ورقات، ص ص 27-28.

31) المصدر نفسه، ص 28.

تنشيط الحياة الاقتصاديّة والماليّة على الصّعيدين الدّاخليّ والخارجيّ [32]. وممّا يذكر في هذا الغرض، أنّ اليهود قد " اختصّوا بعمليّات الصّرف وعديد العمليّات البنكيّة " [33]. ويفيدنا ابن حوقل في هذا السّياق نفسه أنّ القيروان اعتُبرت "أعظم مدينة بالمغرب، أكثرها تجرا وأموالا وأحسنها منازل وأسواقا، و : كان فيها ديوان جميع المغرب وإليها تجبى أموالها وبها دار سلطانها" [34].

لقد كانت للقيروان "علاقات تجاريّة ببلاد السّودان الغربيّ (مالي) وما يجاورها من البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد ممّا ساعد على وجود الذّهب المجلوب من تلك الأصقاع إلى القيروان واستطاع تجّار القيروان أن ينتقلوا إلى ديار الملثمين وبلاد السّودان حيث كانت القوافل تجلب الذّهب والعبيد من الجنوب" [35].

هكذا كانت مدينة القيروان سوقا للتّجار ومقصدا لهم داخل الإقليم وخارجه.

د - الانخراط في مظاهر الحياة الاجتماعيّة :

لقد شكّلت القيروان موطن أجناس مختلفة من بربر وعرب ويهود ونصارى. لقد تناغمت هذه الأجناس فيما بينها واحترم كلّ عنصر منها عادات الآخر وتقاليده. لقد كانت مختلف العناصر تتزاور وتتبادل التّهاني في الأعياد والمواسم الدّينيّة.

32) البحريني عبد الحميد : أسواق مدينة القيروان في العصر الوسيط من خلال المصادر والآثار، منشورات وحدة بحث " تاريخ القيروان "، 2006، ص 60-61.

33) PACHA Na jet : Le commerce au Maghreb du XIème au XIV siècles, Tunis, 1976, p.68.

34) ابن حوقل : صورة الأرض، ص 94.

35) محمود حسن أحمد : الإسلام والثّقافة العربيّة، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، مصر، 1958، ص68. عبد الوهّاب حسن حسني : ورقات، ص435.

5 – طبيعة العلاقة بين ثنائيّة الأنا والآخر الإسلامي والآخر من الملل والنّحل :

المتأمّل في طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر الإسلاميّ والآخر من الملل والنّحل بمدينة القيروان يلاحظ تواصلا ملحوظا وحرصا دائما على مدّ جسور التّعاون والوفاق والتّفاعل بين الحضارات والأديان والثّقافات. وقد أكّد ذلك علماء القيروان بصورة جليّة وقد تمثّل ذلك في دعوتهم إلى الإبقاء على أماكن العبادة من أديرة وبيع وكنائس على حالها دون أن تُمسّ بسوء أو يساء إلى روّادها. وقد صدرت في ذلك مراسلات إلى أهل الحلّ والعقد داعمة هذا التّمشّي ومؤكدة على استمرار يته. وأكبر دليل على ذلك ازدهار الحياة الاقتصاديّة من صناعة وتجارة وزراعة اشتركت في ممارستها مختلف الشّرائح الاجتماعيّة مهما اختلفت وتباينت مذاهبها ومعتقداتها. فالإنسان مستخلف في الأرض في إطار ضوابط تقوم على الاعتدال والمساواة والتّمايز دون أيّ تفاضل. وقد نصّ القرآن الكريم بصريح العبارة على إلغاء الميز بين الأجناس يقول تعالى في هذا السّياق : " ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (36). لقد أقرّ الدّين الإسلاميّ المساواة بين جميع الأجناس وأرسى قدسيّة النّفس البشريّة حيث قال : ﴿ **من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعا** ﴾ (37). ويعدّ الإسلام أوّل دين أقرّ بصريح العبارة حريّة المعتقد " **لا إكراه في الدّين** " (38). هكذا تبدو الثّقافة الإسلاميّة الّتي اعتمدها أهل مدينة القيروان قد انبنت على قيم يمثّل فيها التّوازن الشّامل بين الأنا والآخر ركنا من أركان العقيدة.

36) الحجرات : 13.
37) المائدة : 32.
38) البقرة : 256.

6 - القيروان بين الخصوصيّة والكونيّة الاجتماعيّة والثّقافيّة :

ما من شكّ في أنّ الخصوصيّة والكونيّة الاجتماعيّة الثّقافيّة بمدينة القيروان قد بدت بجلاء في ما اتّسمت به سلوكات أهل عاصمة الأغالبة من مراعاة للقيم الإنسانيّة المجسّمة في التّعاون بين أهالي المدينة الأصليّين والوافدين عليها من مختلف الملل والنّحل والإلف المتبادل والوفاق والحوار البنّاء أي حوار النّدّ للنّدّ بما يتجلّى به من اعتراف بالآخر والتّعايش معه في كنف السّلم والوئام والتّآلف.

وقد ظلّت القيروان خلال العصر الحديث مدينة إسلاميّة مقدّسة نادرا ما يزورها الأجانب من غير المسلمين. وبداية من القرن التّاسع عشر للميلاد تكثّف الحضور الأوروبيّ بالبلاد التّونسيّة عموما فتفتّحت القيروان على التّجارة الأوروبيّة واستقبلت جاليّات من أصول متعدّدة. ومع مجيء الاستعمار الفرنسيّ، أصبحت القيروان شأنها شأن بقيّة المدن التّونسيّة مفتوحة أمام الجاليّات الأجنبيّة وخاصّة الفرنسيّة حيث الاستيطان وممارسة الأنشطة الاقتصاديّة لكنّها في جميع المراحل بقيت محافظة على طابعها الإسلاميّ وظلّت المصادر الأوروبيّة تلقّبها بالمدينة المقدّسة. وقد اعتبر الاستعمار الفرنسيّ سقوط مدينة القيروان مدخلا لسقوط مدن الإيّالة التّونسيّة، ولتجسيم ذلك حرص الفرنسيّون على توجيه كتائب عسكريّة إلى القيروان فحاصرت هذه المدينة من كلّ الجهات حتّى سقوطها. فالقيروان هي أوّل مدينة داخليّة تسقط بعد سقوط مدينة تونس ومدن السّاحل الشّماليّ.

والحاصل لدينا أنّه انطلاقا من تراثها الثّقافيّ العربيّ الإسلاميّ العريق، ظلّت القيروان منارة للعلم تشعّ على العالم الإسلاميّ بأكمله وحصنا للعقيدة السّمحة ولقيم الاعتدال والوسطيّة والتّسامح ممّا جعل المنظّمة الإسلاميّة للتّربية والعلوم والثّقافة (الإيسيسكو) تختارها عاصمة للثّقافة الإسلاميّة لسنة 1430هـ/ 2009م فضلا عن اعتبارها معلما ثقافيّا يحظى بالصّيانة.